مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 04 (2020) - ص 353- 363

مسالك الإيحاء الدلالي في الخطاب الشعر الصوفي: قراءة في ديوان ترجمان الأشواق لابن عربي

Semantic Suggestiveness in Sufi Poetic Discourse an account of Ibn Arabi's Turjuman Al-Ashwak

بن دحو محمد [1] شامخة خديجة [2]
bendahou.mh@hotmail.com[1] 2alchamkha@gmail.com
مخبر تحليل الخطاب والدراسات المعجمية والأدبية المقارنة
جامعة غرداية . غرداية /الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/24 تاريخ القبول: 2020/09/19 تاريخ النشر: 2020/12/10

ملخص البحث

تخوض الدراسة غمار البحث في الخطاب الشعري الصوفي لدى ابن عربي خاصة والمتصوفة عامة وذلك من حيث دلالته الموحية أو المتشاكلة المعاني، وهي محاولة لكشف اللبس و الغموض والاغتراب في المشهد التخاطبي الشعري الصوفي عامة.

إنَّ هذه الإيحاءات هي التي كانت مدار فضولنا لنتمسك بتلابيب البحث عن المسكوت عنه أو ما وراء اللغة من رموز و انزياحات واستعارات واغتراب في الحقول الدلالية وتكثيف في الإيحاء

الكلمات المفتاحية :الأدب الصوفي -الدلالة –الإيحاء _ الانزياح – التأويل

ABSTRACT:

This study deals particularly with the Sufi poetic discourse by Ibn Arabi, and Sufis in general.

Through its suggestive significance in the meaning, this study is an attempt to unveil the mystery in the Sufi Poetic Discourse in general .

The semantic suggestiveness was important for us to present this paperwork, to look beyond the linguistic symbols, metaphors, and alienation in the semantic field.

Key words : Sufi Literature – Indication – Suggestiveness – Displacement – Interpretation

[1] الباحث المرسل : بن دحو محمد

1. مقدمة:

ظلَّ الخطاب الصوفي ردحاً من الزّمن يعرف على أنّه تيار من التيارات الدينية المحضة، مما جعل الكثير من الدّارسين يزهدون في الاستفادة منه كظاهرة لغوية أدبية متفردة، وانعكست هذه النظرة السلبية على مجموع الأدب العربي حيث بقي جزءاً مهماً منه يقبع في رفوف المكاتب، على الرغم من عبقه بأريج المجاز وثراء المعنى؛ وتروم هذه الدراسة رتق الصّلة بين أجزاء هذا التراث الزاخر (ظاهره وباطنه). من هنا فإننا نحاول في هذه الورقة البحثية معالجة الدلالة الإيحائية منطلقين من إشكاليتين رئيسيتين هما : **كيف نتلقى الدلالة الإيحائية في الخطاب الشعري الصوفي؟ ومن المسئول عن الالتباس وعدم الفهم؟ هل هو الكاتب أم المتلقي ؟ .**

2. مفهوم الدلالة الإيحائية

للولوج إلى الدلالة الإيحائية نمهد لها الطريق أولا بـ **(الكلمة)**ومرحلة وصولها إلى **الإيحاء**، وقد نتساءل لماذا الكلمة أولا ؟ فنقول من باب محاورة النفس و إجابتها إنّ الكلمة تعد أصغر وحدة دلالية في النظرية الحديثة ومنها ينطلق لفهم المعنى في الخطاب، وأهميتها تكمل كذلك على احتوائها على معاني ثابتة ثبوتاً نسبياً .

ومن هذا المنظور يمكننا الانطلاق للتّعرف على دلالة الكلمة وإيحاءاتها بدءاً بتعريفها انتهاءً عند مفهومها في القطرين العربي والغربي قديما وحديثاً، وصولاً الى ماهيتها عند المتصوفة.

1.2 تعريف الدلالة الإيحائية :

أ) تعريف الإيحاء لغة : المحص لكتب المعاجم قديما وحديثا يجد مفهوم الإيحاء يقترن بمفهوم **الإشارة والإلهام والكلام الخفي** . يقول ابن منظور معرفا لفظ الإيحاء وأوحى أليه: بعثه، وأوحى إليه ألهمه وفي التنزيل العزيز (وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)وفيه (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) أي إليها، فمعنى هذا أمرها"[1]. وفي معجم التعريفات لشريف الجرجاني نجد تشابه بالمعنى السابق لابن منظور ؛يقول : " الإيحاء إلقاء المعنى في النفس بخفاء وسرعة " [2].

من هذا التعريف اللغوي يمكننا أن نقف على مفهوم الإيحاء في اللغة والذي يقصد به الإشارة السّريعة الخاطفة، وهو أحياناً يدل على الخفاء و الإيماء.

ب) اصطلاحا : عَرَف الدّارسون الدلالة الإيحائية بتعريفات شتى ومسميات متعددة فإبراهيم أنيس يعرفها بقوله : "هي تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتراكيب أجسامهم ،وما ورثوه من أباءهم وأجدادهم ، وهي لدى فرد من البيئة الاجتماعية توحي بظلال من الدلالة قد تخطر في ذهن آخر من البيئة نفسها لأن تجاربهم مع الكلمة مختلفة" [3].

وعرفها علي زوين بالمعنى نفسه وأضاف إليها اسم الهامشية: فقال "الدلالة الهامشية هي فردية مختلفة من شخص إلى آخر تبعاً للمستوى الثقافي والتجربة والمزاج والعاطفة والعوامل الوراثية وغالبا ما تختلف في الشخص نفسه باختلاف أحواله النفسية "[4].

ومن التعريفين ندرك أن هذه المعاني تكتسب الشخصية الذاتية الطافحة على المخيلات الفردية من باب المجاز أو الاستعارة أو الكناية؛ والدلالة الإيحائية تستعمل خلافاً لما هو معهود في المعجم اللغوي، وأسباب هذه الدلالة الهامشية كثيرة أهمها الأسباب النفسية التي تؤثر في الشعور واللاشعور.

وفي الفكر الغربي نجد جون لينز John lyons **في كتابه اللغة والمعنى والسياق** يعرفها بتسمية مختلفة على ما هي عند الباحثين العرب، ويسميها **المعنى الوصفي** أو **المعنى المعبر**، وهنا يقول :"**المعنى الوصفي** ويتضمن ما سأشير إليه بالقول هناك مصطلحات بديلة معادلة له تقريباً وهي مؤثر وموقفي و انفعالي، **فالمعنى المعبر** أي المعنى الذي يعبر المتحدث عن معتقداته وموقفه ومشاعره بدلا من أن يصفها"[5].

والدلالة التي نروم البحث فيها في خطابنا الشعري الصوفي استنطاقاً واستعطافاً للمفاهيم السّابقة هي تلك **المحشوة بالمعاني التي تتولد من اللّفظة الواحدة داخل السّياق الشعري** ،فيكون أحدها **المعنى الرئيس** للفظة، وتكون المعاني الأخرى **كالظّلال له**، ولهذا أشار قديماً عبد القاهر الجرجاني(ت471 هـ) بإقراره أنّ :"لكل نوع من المعاني نوعا من اللفظ هوية أخص وأولى ،وضروبا من العبارة هو بتأديتها أقوم" [6].

فهذه الإشارة من عبد القاهر لا تعد معرفة بالمصطلح بقدر ما تعد تنبيهاً لأهمية الألفاظ في **صناعة المعنى عبر السياق**، فلا جرم أنه كان واعياً بأهمية الكلمة في الدلالة، وعليه التنبيه إليها كان في تاريخ مبكرٍ. ومن هنا يتأكد لنا إيحائية الألفاظ ودلالتها، فهناك من الألفاظ ما توحي بأكثر من المعاني المعهودة فيها.

3. تجليات الإيحاء الدلالي في ترجمان الأشواق لابن عربي :

إنَّ الذّائقة الشعرية للشاعر الصوفي بلغت درجة النضج في صنع الدلالة الإيحائية و الاستثمار في المفردة اللغوية، فمصنع هؤلاء العارفين كان جذابا وأكثر رواجا في أسواق **الغموض والتلميح**، وإذْ نتحفظ على ما يروج لهذه الدلالة الموحية ومعناها لدى بعض الفقهاء إلى حين؛ نريد هنا نبش المستور حول **ايحائية الكلمة ودلالة معانيها لدى أشهر أعلام الصوفية أمثال الحلاج و ابن عربي وابن الرومي وابن الفارض وغيرهم كثيرون** ممن ساروا على هذا النهج الموغل في الغموض.

إن كشف اللّبس عن **الدلالة الإيحائية وتجلياتها في النص الشعري الصوفي** لدى ابن عربي في ديوانه المسمى **ترجمان الأشواق** لا تتأتى إلّا بعد إعمال القراءة عليه؛ وإعمال القراءة يتنح بين ألية **التفسير والشرح** وألية **التأويل herméneutique** من جهة أخرى، ولكلا المنهجين أنصاراً ومؤيدين؛ فالأول: يعنى بمنطوق الخطاب الشعري ويعتمد على القراءة الحرفية الظاهرة؛ أما الثاني فإنّه يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير باعتبار النّص شحنة ملغزة يجب **فك ترامزها الدلالية الموحية**، وهذا الذي نؤيده ويدخل صلب دراستنا لفهم **المعنى الإيحائي للمفردة الصوفية**؛ فالكشف عن **البنى التحتية لنّص الصوفي** عامة والشعري خاصة لا يتأتى إلا بالوقوف على **العملية السيموطيقية** التي تجر القارئ لحل شفرات النّص الشّعري في سياقه للوصول إلى تفسير المعاني الموحية، والتي ترتبط بالبنى الشكلية، ومن ثمة فإن القارئ الذي نناشده هو قارئ ذو دراية وبصيرة لغوية تمكنه من استنطاق مفردات النص الشعري.

ولعل الإشكالية الكبرى في الخطاب الشعري الصوفي تدور رحاها حول **اللّغة ودلالتها في هذا الخطاب**، فالدلالة في الشّعر عموماً لا تعرف الثبات، فلا يمكن الحكم على النصوص الإبداعية كحكمنا على عملية رياضية أو مسألة علمية لا تحتاج إلى إعادة النظر؛ من هنا يفرض **الفهم الإيحائي لدلالة الكلمة** نفسه خطوة أُولية للقراءة في الشعر الصوفي، باعتبار أنْ الدلالة تُطِل على نافذتين مهمتين في الخطاب عموما والنَّص الشعري خصوصاً هما : **الظاهر والباطن**؛ وعليه تكون القراءة عملية متبادلة **من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص**؛ وفقاً لهذا يتحدد **دور المتلقي في الخطاب الشعري** للضيافة التي يقيمها بينه وبين النَّص في محاولة **الفهم والتأويل**.

إنّ الكشف عن **البنى التحتية لنص الصوفي** تأتى أساساً من **العملية السيمطوقية** التي تجري في عقل القارئ بعد عدة قراءات لنص وتحليل شفراته ، معتمداً على مرجعيته اللّغوية والكفاءة التي يدّخرها من مخزونه الثّقافي، ليلج بعد ذلك الى ما يعرف **بالقراءة الاسترجاعية RÉTROACTIVE**، والتي من خلالها يعمل هذا القارئ على بنيات النص إلى أ صولها؛ وهو أشار إليه ميشال ريفاتير Michael Riffaterre بالقراءة "التأويلية الحقيقية herméneutique "[7]، ويلجأ القارئ من خلالها الى تعرية مفاصل النص بقراءة بنوية تفكيكية للعلامات الدالة .

وتتجلى هذه الدلالة الإيحائية في الخطاب الشعري الصوفي لدى ابن عربي في ترجمانه في عدة أشكال منها :

1.3 الإشارة :

الخوض في الدلالة الإيحائية للإشارة عند المتصوفة سيفتح أمامنا بلا شك متحفاً جميل يموج بمختلف الروائع الدلالية اللفظية، فالصُّوفي مبدع وفنان موهوب، خَبر أسرار النَّفس الإنسانية

وعَزف على خباياها وغموضها، وامتزجت روحُه بآيات الكون الثَّلاث: الخير والحق والجمال، فجاءت سنفونيته تعج بشتى الألحان، وتطلق العنان لخيول العقل الجامحة تعدوا وراء المعاني.

من هنا أبدع الصوفي إشارةً أكثر منه عبارة معلناً وجوده كمبدع بأسلوبه اللفظي الخاص؛ وهو ما قذف في العقول الريبة والشك للتساؤل والاستفهام؛ هل لمثل هذه الألفاظ في الأدب نصيب؟ يجيبنا زكي نجيب مبارك قائلا: " لا مفر من الاعتراف بأن الصوفية كان لهم وجود أدبي ملحوظ وكيف لا يكون الأمر كذلك، وقد عُرفت عنهم ألفاظ و تعابير دوَّنها المؤلفون، وتلك الألفاظ والتَّعبيرات هي ثروة لغوية يقام لها وزن تدرس المصطلحات، وقد يقال: لكل قوم ألفاظا و تعابير حتى النجارين والحدادين، ولا يكون ذلك عنوناً على سلطتهم الأدبية، ونجيب بأن ألفاظ الصوفية جرت في الأغلب حول معان وجدانية وروحية واجتماعية فهي ألصق بالحياة الأدبية"[8].

إذاً: إن ما ننطلق منه -في مفهوم الإشارة عند المتصوفة-أنّها تختلف تماماً عن ما هي عند البلاغيين؛ فالمتصوفةُ بنو مفاهيمهم طبقاً لتعريف البلاغيين، إلَّا أنّهم أوغلوا في هذا المفهوم وألبسوه جلباب الغموض. لذلك قالوا:

إِذَا أَهْلُ العِبَارةِ سائلونا __ أَجَبْناهم بِإِعَلاَم الإِشَارةِ

نُشِيَر بِها فَنَجْعَلُهَا غُموضاً __ تَقْصُرُ عَنْهُ تَرجَمةُ العِبَارَةِ[9]

فالغموض الذي اِلتجأ إليه الصوفي كان مقصوداً، حتى لا يفسد المعنى أو يخبر غيره بما هو غير مراد في النص، فينصب الفاعل تحريفا للمعنى، ويرفع المفعول تزييفاً للقصد، وبذلك يجر هذا الصوفي إلى مقصلة الحكم غياباً وحضوراً كما حدث مع الحسين بن منصور الحلاج(ت 309 هـ ،922 م)، وفي هذا قال محي الدين ابن عربي:

فَمَن فَهِمَ الإِشَارَةَ فَلْيصُنهَا __ وإِلَّا سُوفَ يُقْتَلُ بِالسَّنَانِ

كَحَلاَجِ المَـحَبَةِ إِذِ تَبَدتِ __ لَهُ شَمْسُ الحَقِيقَة بالتَّـدَنِي

فَقَالَ أَنا هُو الحَقُ الذَّي لَا __ يُغَيُر ذَاتَه مر الزَّمَـانِ[10]

إنّ العزف على أوتار القلوب بلغة الإشارة الموحية كان مقصداً للصوفي، فالإشارة عنده هو حديث الروح للروح، حديث اللاوعي محمولاً على أجنحة الخيال، ومن هنا لجأ إلى الحجب بإلباس المعاني اللغة الإيحائية الإشارية، ومن ثم قذف أنغاماً في أذان السّامعين لم يعهدوها فاستغربوها، وكان عليهم كمتلقين لخطابهم أن يقربوا المسافة بين الصوفي والعامة وبذلك ينصفونه في بعض ما يمكن تأويله بأوجه عديدة .

ومن خلال تصفحنا لديوان ترجمان الأشواق وشرحه ذخائر الأعلاق ألفينا هذا المتصوف يتفق مع البلاغيين في فهم هذه الإشارة في مبدأها الأول، من خلال تلبيس الألفاظ الغموض، وعليه يمكننا

القول في تعريف الإشارة هي " الأخبار من غير الاستعانة إلى التعبير باللسان، وقيل ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه، وتكون مع القرب ومع حضور الغيب، وتكون مع البعد"[11].

وهو ما أشار إليه ابن الفارض في تعريفه في تائيته الكبرى حيث قال:

أَشَرتُ بمَا تُعطِي العَبارةُ ـــ والذِّي تُعطِى أَوضَحْتهُ بَلَطيفةٍ [12]

وفي نفس التائية يقول:

وَعَنّي بالتَّـلويحِ يُفهَم ذَائـقٌ ـــ غَنيٌ عن التَّصْريحِ للمتعنتِ

بِها لم يبحُ من لم يبحْ دَمه وفي ـــالأشارتِ ما الـعَبارةِ حدتِ[13]

و القراءة لهذين البيتين تكشف استعمال ابن الفارض لتلويح؛ والتلويح هو مصطلح من مصطلحات الصوفية التي يعبرون بها لما يدرك بالذوق والمشاهدة.

ومن ثمت فقد دعا ابن عربي في بداية ترجمانه الى إمعان العقل لفهم هذه الإشارة ؛ يقول :

فَاصْرِفِ الخَاطِرَ عَنْ ظَاهِرهَا ـــ وَاطْلُبِ البَّاطِنَ حَتى تَعْلَمَا [14]

و من الإشارات الطافحة بالمعاني الموحية والصور الوجدانية قوله :

ناحتْ مطوقةٌ فحـــنَّ حـــزينُ ـــ وشجاهُ ترجيـــعٌ لها وحـــنينُ

جرتِ الدُّموعُ منَ العيونِ تفجـــُّعاً ـــ لحنينها فكـأنهنَّ عيـــــونُ[15]

فالصوفي بإشارته للمحبوبة يناشد عالم علوي في قوالب من العالم الواقعي للحب الجسدي، لذلك قرر الانفلات و الانقلاب على عقال أدواته واللغة القديمة، وروتين الأساليب التعبيرية، معلنا ضيق لوازمها على فهمه، ومدعيا ترويضها في عالمه الجديد، ولذلك أدار ظهره لها _ العبارة _ لأنها لا تحقق تطلعه **للتحليق في الخيال**؛ وبذلك استعان _الأديب الصوفي _ لإكمال المسيرة بوهج لغةِ توليدية دلالية إيحائية جديدة، يرى لها بريق الحشود الدلالية السائدة ويتلمس فيها اللفظ الواحد بالمتعدد، **فاللغة تلوذ بالرؤى لتعبر عن رؤية مغايرة**، واستعان بلغته الخاصة وأي لغة ؟ **لغةٌ تنماز بالإشارات والشفرات: لغةٌ تغازل الحروف لتراودها، لغة تنقب في الأعماق** لتسيل لعابك على مائدةٍ دسمةٍ بالمعاني، فالتّعبير بهذه اللّغة " هو وحده الذي يمكن أن يقابل الحالة الصّوفية التي لا تحدها الكلمة...فكما إن الحالة الصُّوفية لا يحكمها مقياس الحس والعقل كذلك ليس في مقدور لغة الاصطلاح والوضع أنْ تعبر عما سيتناقض مع الاصطلاح و الوضع"[16].

إنَّ الجُنوح إلى الإشارة الموحية هو ما يجعل اللّغة الصوفية تتماهى في التّشفير والخيال، فتخترق السّائد لتفتح باب التأويل، فهي لغة لا يمكن فهمها بمنطق الظّاهر.

يقول ابن عربي:

سلامِ على سلمى ومن حل بالحمى ـــ وحق لمثلي رقة أن يسلـما

و ماذا عليها أن ترد تحـية علـينا ـــ ولكن لا احتكام على الدمى

سروا وظلام الـليل أرخى سدوله ـــ فقلت لها صبا غريبا متيما [17]

فالظّاهر من ألفاظ الشّاعر إنه يتغنى بالمحبوبة شوقاً وحنيناً وتعلقاً؛ لكن المقصد الباطني المشار إليه أبعد من ذلك بكثير، فيستحضر (نار الشّوق والحنين و الصّبابة) ليقرئها السّلام كإشارة موحية للحضرة الأهلية؛ فسلمى والصبا والليل والظلام كلها ألفاظ مشحونة بالمعاني الموحية لا تدرك للعوام؛ **فالدّلالة العميقة تحمل معاني تتجاوز الدلالة الحسية المباشرة** لتحيلنا إلى **الكنايات والاشارات والتلويحات** ،من ثمت **تزدوج الدلالة اللفظية** ازدواجا فتتجاوز الحدود الذّهنية للألفاظ لتشير إلى أحوال ومقامات ومجاهدات ومواجيد .

2.3 الرمز:

المتصفح للأوراد الصوفية عامة يجدها طافحة بالرموز اللفظية الإيحائية التي تُوغِلُ العقل في الخيال والغموض، مما تجعل القارئ يتشبث بالتحليل عديد المرات، ذالك أن المتصوف يعبر على مقامات هذا العلم التي تغوص في الوجدان ويستحيل التعبير عنها باللغة العادية، فيلجأ إلى **اللغة الرمزية بإيحائها الدلالي** فيرسم لنا بذلك فيوضات ربانية عرفانية .

إنَّ لغة الرمز الإيحائية في ترجمان الأشواق هي التي ألحت علينا الوقوف عندها لبيان خباياها في **تجليها كدلالة موحية**، ذلك إنّه لا يمكننا الخوض في فهم الدلالة الإيحائية ما لم نفهم الأساس الذي قامت عليه هذه الدلالة في الخطاب الصوفي، وبالأخص في شعر أعلام المتصوفة الرمزيين كالحلاج وابن عربي وابن الفارض؛ إذ يعدون في ميزان الشعر الصوفي الرمزي من أبرز الشعراء الصوفيين، وأصحاب باع طويل في لغة الرمز لضرورة أو لغير ضرورة؛ يقول القشيري مشيرا إلى اللغة الرمزية عند الصوفية :"إن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها، انفردوا بها عمن سواهم، تواطئوا عليها لأغراض فيها: من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصّنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها. وهذا الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة على أسرارها أن تشبع في غير أهلها؛ إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم "[18] .

فمن هذه المقولة وغيرها من مقولات أئمة الصوفية ندرك ما كان يخفيه هؤلاء من رموز داخل لغتهم المتلبسة بالرمز، التي كانت تومئ بالكثير من الأسرار العرفانية، توجست خشية الفهم،

فاختبأت خلف الرمز وقد تراءى لنا الكثير منها في تقصينا لبعض أشعارهم . فالرمز كان لغة فضلة لدى معظم إبداعات الصوفية، وهذا يعود للأسباب كثيرة، فك شفراتها المتصوفة نفسهم، وفرقوا بين **الرمز واللغز والإشارة**.

فالدلالة الرمزية في الديوان الصوفي- ترجمان الأشواق - تقع بين بعدين دلاليين وتكون في "بعدها الأول تمثل مستوى **المعنى الظاهر** وتشير في الوقت نفسه الدلالة الإلهية الباطنية، وهو ما يفسر الإصرار على تأكيد أهمية البعد الظاهر_ بل جوهريته _ للنفاذ للمستوى الباطن وإن الظاهر هو الرمز الذي بدونه يستحيل النفاذ إلى المرموز، وعلى ضوء ذلك فهجوم الفقهاء على تأويلاتهم ناتج عن جهل فهم منهجهم "[19] .

فالمتأمل في أشعار ابن عربي يصطدم بتلك الألفاظ الرمزية التي أطلق العنان لها فباطن اللغة عند هذا المتصوف يتناول علم الأذواق والحقائق، من هنا كان "الرمز عند الصوفية يمثل نوعين اثنين :نوع يكون الرمز فيه عن وعي واتفاق و مواضعة وهذا لأسباب كثيرة مختلفة ارتآها الصوفية على نحو ما ذكره القشيري، وابن عربي وهذا النوع لا يعبر عن التجربة الصوفية الشعورية التي يمر بها الصوفي بقدر ما يصف التجربة من الخارج في إطار شفرة ثابتة وسط أهله تسمى في فقه العرفين المشتغلين بالخطاب الصوفي بالاصطلاحات الصوفية مثل القبض و البسط الجمع و الصحو والفناء والمشاهدة وغير ذلك، أما النوع الأخر فهو خارج عن الاتفاق و المواضعة وهو يعتمد **الذوق والخيال**، ويراد به أساسا التعبير عن التجربة الصوفية من جانبها الإبداعي لا الاصطلاحي " [20] .

فالتوظيف التكثيفي لرمز عند المتصوفة يحمل أُسساً فنيةً وإبداعيةً تتشظى من الدلالة الموحية لتوصل رسائلهم ، فاللغة **الشعرية تقوم على الانحراف الدلالي** Obliquité Sémantique [21]، وهذا ما نلاحظه من خلال توظيفهم رمز الأنثى والطلل والخمر والأماكن .يقول ابن عربي :

ما رحلوا يومَ بانوا البُزَّلَ العِيسا ___ إلا وقد حملوا فيها الطواويسَا

من كلِّ فاتكةِ الألحاظِ مالِكَةٍ ___ تخالُها فوق عرشِ الـدُّرِّ بلقيسا[22]

يجسد لنا ابن عربي صورة المعارف الإلهية والحكم الربانية في شكل رمزي إيحائي؛ امرأة ساحرة الحسن والجمال تفتك بلحظها الناظر إلى طلعتها، فتغريه بمناشدتها برموز الحسن المعتقة بالعشق حتى أضحت ملاذاً خصباً يستثمر فيه من أجل العروج لمن خلق الجمال .

3.3 الانزياح :

استثمر المتصوفة عامة وابن عربي خاصة في تقنيات الانزياح باعتبارها تقنية فنية تكشف عن الإبداع، وإذا غابت الانزياحات غاب الإبداع. وبقدر غنى التعدد الدلالي، الذي تخلقه الانزياحات، يكون الغنى الإبداعي، فقد كان "أكثر المتصوفة وعيا بالقيمة الابستمولوجية للغة وبالقيمة

الأنطولوجية لها ". وقد اشتغل على الأسماء الملفوظة وحول دلالتها بطريقة انزيحية متسلسلة، فالكلمات عنده تحمل " طابع يلتوي بالدلالات الوضعية الأولى للكلمات ، ويلد منها بالمزج والتركيب والحذف والإضمار دلالات فنية ثانوية هي بمنطلق الشعر أهم وأولى من تلك الدلالات اللّغوية الوضعية "[23].

يقول ابن بن عربي مجسدا شوقه في وصف المحبوب و الحقائق والدلائل الإلهية :

ألا يا حَماماتِ الأراكَــةِ والبَــانِ ___ترَفّقْنَ لا تُضْعِفْنَ بالشجوِ أشجاني

ترَفّقْنَ لا تُظهرنَ بالنّــوح والبُكـا ___خفيَّ صباباتي ومكنونَ أحزانــي[24]

تنزاح الدلالة في هذه الأبيات عن **المعنى المعجمي** لتخرق المُشاع وتتمرد على **اللغة العتيقة**، وتنتقل من العُرف إلى العرفاني؛ من ثمة استثمر ابن عربي في تقنيات الانزياح – وإن كان لا يدرك معناها الحديث - باعتبارها تقنية فنية تكشف عن الإبداع ، وإذا غابت الانزياحات غاب الإبداع. وبقدر **غنى التعدد الدلالي**، الذي تخلقه الانزياحات، يكون الغنى الإبداعي، فقد كان "أكثر المتصوفة وعيا بالقيمة الابستمولوجية للغة وبالقيمة الأنطلوجية لها "[25].

إنّ اللغة التي ينتجها المتصوفة في خطابهم الشعري ، لغة انتاجية [26] **Productivité** محملة بشحنات من الانزياحات، تحتاج إلى تشريح وتأويل لأدركها، فالانزياح ظاهرة فنية ذات معاني إيحائي تتشظى منها الدلالة العرفانية، فخيال العارف يجره نحو الانزياح اللفظي لبناء تشكله الجمالي لفظة الشعرية، معتمدا على المظاهر اللغوية كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والذكر وهو ما جعل المقاطع الشعرية لا تبوح بكل أسرارها ، فكانت أشبه ما يكون **بالمتتاليات اللفظية المستغربة**، وكل لفظة تحمل وجهين دلالين أو أكثر، **دلالات تمتلئ بالاستعارات والمجازات والكنايات**، فهي نتاج شطاحات ومجاهدات لنفس، ليصل بها إلى مرحلة المكاشفة، فينحت دلالات جديدة للمفردة التي يستعملها .

4. خاتمة:

إنّ **البحث في الدلالة الإيحائية يحمل بين طياته روح المغامرة والتحري وتقصي المعنى**، فالباحث هنا يتعامل مع مجموعة من **الأنساق اللغوية ذات المعنى الدلالي** المختلفة والمتشاكل أحيانا، **والكلمة تكتسب في سياقها عدة معاني**، يصعب التنبؤ بها منفردة عن هذا السياق؛ فعالم المصطلحات الصوفية أشبه ما يكون بخيوط العنكبوت من حيث **التشابك و التشاكل** فهو مليء بالمصطلحات التي قد تنهار لتكسب دلالة أخرى أحيانا بالانتقال بين أعلام الصوفية؛ وعليه **فالدلالة في الخطاب الصوفي حمالة أوجه تقوم على التباين والتعدد** وهذا لا يعيب العمل الإبداعي الصوفي بقدر ما يكسبه مهابة في **التأويل وتعدد القراءة بدل القراءة الوحيدة**، وفي ضوء هذا يصير عملا

مفتوحا و ديناميا، وأي محاولة لإجبار النص على البوح والإكراه تفضي به إلى بتر أحد أعضائه مع سبق الإصرار والترصد.

إنّ الكلمة المفتاح في فهم وإدراك الخطاب الشعري الصوفي تكمل في **فهم مثلثه الإبداعي الذي يقوم عليه : الإشارة والرمز والانزياح** ، فهي أهم مباحث الإيحاء عند الصوفية وخاصة ابن عربي في ترجمانه، ومن خلالها يمكن الوقوف على الظاهر والباطن، وبذلك يعسر على القارئ الولوج والتفطن إلى مزالق وخفايا النص الشعري الصوفي، والذي رسم لنفسه نهجاً في التعبير ينبؤوا عن المواضعات و يغوص في الرمزية والغموض، ويلح إلحاحاً عن **البعد الفردي والذاتي في صناعة الكلام وتوليد المعاني**، وبذلك فالقارئ مطلباً بالتسلح بالعديد من الأليات اللغوية، والثقافة الموسوعية ، حتى يفك شفرات هذا الخطاب .

5. الهوامش:

[1] محمد بن مكرم بن علي الأنصار ابن منظور : لسان العرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الحديث ،القاهرة ،2003، ج 9، ص 243.

[2] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني: معجم التريفات، تحقيق : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة – القاهرة ، ص 37.

[3] إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، ص : 107 .

[4] علي زوين: ظلال المعنى بين الدراسات التراثية وعلم اللغة الحديث _مقال _مجلة أفاق عربية، أيار، السنة الخامسة عشر، 1990 م، ص 45.

[5] جون لينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، صموئيل يوسف عزي، سلسلة المائة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد 1976 م ، ص : 35.

[6] عبد القاهر الجرجاني : الرسالة الشافية ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق وتعليق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر القاهرة، د ت ،ص : 107.

[7] علي حرب : النص والحقيقة 2، نقد الحقيقة ، ط 2 ، مركز الثقافي العربي المغرب ، بيروت 1995 م ،ص 55.

[8] مبارك زكي : التصوف الإسلامي، مطبعة الرسالة ، مصر ،ط 1،1938 م، ص 71.

[9] أبو بكر الكلاباني : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق : أرثر جون ابري، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ط، 1933 م، ص 61.

[10] محي الدين ابن العربي : الأسرى إلى مقام الأسرى، تحقيق سعاد الحكيم، دندرة للطباعة والنشر بيروت، لبنان ،1408 هـ – 1988 م، ص 59.

[11] وذناني بودود: المختصر في المصطلحات الصوفية، سلسلة أبحاث مخبر اللغة العربية، الأغواط، ط 1، 2009 م، ص 9.

[12] ابن الفارض: ديوان ابن الفارض، دار صادر بيروت، د ت، د ط، ص 92.

[13] المرجع نفسه، ص 83.

[14] محي الدين ابن عربي: ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، لبنان 2003، ص 11.

[15] ابن عربي: ذخائر الأعلاق، تحقيق خليل عمران، ص 39

[16] أدونيس: الثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط 4،1986 م، ج 2، ص 95.

[17] ابن عربي :ذخائر الأعلاق ،تحقيق خليل عمران، ص :21.

[18] أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري : الرسالة القشيرية، تحشية: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 2001، ص 89.

[19] نصر أبو حامد: هكذا تكلم ابن عربي 141_142.

[20]ابن عربي: ديوان ذخائر الاعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق محمد علم الدين الشقيري، ص 60.

[21] Voir, Michael Riffaterre ; Sémiotique de la poésie, trad Jean Jacque Thimas éd Seuil Paris ; 1983, P 12 .

[22] ابن عربي : ترجمان الأشواق ، ص 15 إلى 19.

[23] البحث الدلالي في كتاب سيبويه ، ناشرون وموزعون ،ط1، 2007 م، دار دجلة الملكة الأردنية ، ص 395 .

[24]ابن عربي: ترجمان الأشواق ص

[25] عبد الحق منصف: الكتابة والتجربة الصوفية مطبعة عكاظ ،الرباط، د ط ،1988 م ، ص 16.

[26]Voir : Julia Kristeva, Semiotiké : recherches pour une sémanalyse , Paris, 1969. p 175.